

إعادة التفكير في اللجوء المناخي على ضوء أزمة اللجوء السوري:

منظور زراعي للنزوح¹

شاينا سجاديان

أستاذة مساعدة في قسم الأنثروبولوجيا في كلية فاسار في الولايات المتحدة

أمضيتُ قرابة العامين منغمسةً في مخيمات عمّال الزراعة السوريين في سهل البقاع اللبناني كجزءٍ من مشروع بحثي أوسع حول علاقات الديون عبر الحدود اللبنانية السورية² طوال فترة الحرب في سوريا، أصبحت هذه المخيمات ملاذاً للجوء طويل الأمد للعديد من المزارعين النازحين من محافظة الجزيرة، الواقعة في شمال شرق سوريا وعانت من الجفاف في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين³ على الرغم من عدم تخصصي في "اللجوء المناخي"، لكنني كنت على دراية بأن الصحفيين والوكالات الإنسانية والباحثين يستخدمون هذا المصطلح غالباً لوصف هؤلاء المزارعين الذين تربطهم علاقات هجرة مع لبنان منذ ما قبل اندلاع الحرب السورية. وفيما كنت أعمل يومياً إلى جانبهم، وأمضي ساعات طويلة في التعرف إلى تاريخهم العائلي، أدركت بسرعة مدى اختزال ظروفهم بهذا الإطار الضيق. لا يعتبر مصطلح "لاجئ مناخي" غير دقيق ومُنْفصل عن المسار التاريخي فحسب، بل يخلط أيضاً بين ظواهر متباينة ويقفّص من أهميّة الأسباب الهيكلية أو الأسباب المباشرة للنزوح⁴.

أصبحت التخمينات المتعلقة بدور الجفاف في الصراع السوري بمثابة "فبركة" فعالية على مدى العقد الماضي، وقد دُعمت بادعاء عن أن الحرب في سوريا اندلعت، جزئياً أو بشكل

¹ Translation by Viviane Akiki into Arabic: "Rethinking Climate Refugees and the Syrian Refugee Crisis: An Agrarian Perspective of Displacement." Arab Studies Journal 30 (2): 74-81.

² China Sajadian, "The Agrarian Question in Lebanon Today: A View from a Camp in the Bekaa Valley," Jadaliyya, 19 August 2020, <https://www.jadaliyya.com/Details/41585>.

³ Myriam Ababsa, "Crise agraire, Crise foncière et sécheresse en Syrie (2000–2011)," in Développer en Syrie: retour sur une expérience historique, ed. Elizabeth Longuenesse and Cyril Roussel (Beirut: Presses de l'IFPO, 2014), 111–134.

⁴ Gregory White, "Climate Refugees—A Useful Concept?" Global Environmental Politics 19, no. 4 (2019): 133–138

رئيسي، بسبب أزمة المناخ. عارضت مجموعة مُتزايدة من البحوث هذه التفسيرات الحتمية البيئية البالية، وشدّدت على وجود روابط سببية مشكوك فيها بين تغيّر المناخ الناجم عن التدخلات البشرية والجفاف في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، والهجرات الجماعية وأصول الحرب السورية.⁵ قدّم الأكاديميون والباحثون النقديون في المنطقة تحليلات أكثر تواضعاً تستند إلى البعد التاريخي لموجات الجفاف⁶ وشدّدت على تأثير التحوّلات الزراعية المحليّة والعالمية في إنتاج الهشاشة الماخية لسكّان شرق سوريا بمرور الوقت، ولاسيما الإجماع العالمي حول تكثيف الزراعة الذي أدّى غالباً إلى الإفراط في استغلال احتياطات المياه الجوفية وتآكل التربة وانخفاض غلّة المحاصيل. بالنسبة لهؤلاء الباحثين، لم تكن آثار الجفاف في سوريا مجرد كارثة "طبيعية" أو حدث كارثي، بل النتيجة الحتمية لسياسات الدولة والتحرير الاقتصادي وتدهور الموارد المائية وتعمّق انعدام المساواة في المناطق الريفية.⁷

سواء صنّفوا كـ "تهديد" من قبل كارهي الأجنبي أو "مستحقّين" للحماية من قبل التقدّميين، تبقى صورة لاجئي المناخ قويّة لأنها تنقل شعوراً بالعجلة والضرورة في عالم يتدهور بفعل ظروف مناخية متطرّفة لا يمكن التنبؤ بها. الافتراض الضمني الذي تدور حوله كثير من الأبحاث المعاصرة المتعلّقة باللجوء المناخي يقوم على مفهوم إنساني ليبرالي عن الأزمة باعتبارها حالة طارئة، وهو افتراض مُتجذر في التمييز الذي انتشر في حقبة الحرب الباردة بين اللاجئين المُكرهين وبين العمّال المهاجرين بملء حريتهم. وفي المقابل، قادني التدريب الذي خضعت له على الاقتصاد السياسي النسوي والدراسات الزراعية النقدية إلى تحليل "الأزمة" إنما ليس باعتبارها كارثة إنسانية فحسب، بل اتجاهاً تاريخياً داخل منظومة الغذاء الرأسمالية العالمية. أدّى الجفاف إلى تفاقم هجرات السوريين الشرقيين، مُشكّلاً ما يسمّيه الباحثون الزراعيون بـ "نزع الملكية عن طريق التهجير"⁸؛ إلا أن الهجرات ارتبطت تاريخياً بالخصخصة التدريجية للموارد الزراعية في سوريا وضعف سبل العيش الريفية. فضلاً عن ذلك، وجدت أن الكوارث المناخية لا تُؤدّي بالضرورة إلى هروب الناس من مكان إلى آخر، كما توحى الصورة المروعة لـ "الهجرة المناخية الجماعية"⁹ بل إن التأثيرات المجتمعة

⁵ Jessica Barnes, "Managing the Waters of Ba'th Country: The Politics of Water Scarcity in Syria," *Geopolitics* 14, no. 3 (2009): 510–530; Francesca de Châtel, "The Role of Drought and Climate Change in the Syrian Uprising: Untangling the Triggers of the Revolution," *Middle Eastern Studies* 50, no. 4 (2014): 521–535; Jan Selby, Omar S. Dahi, Christiane Fröhlich, and Mike Hulme, "Climate Change and the Syrian Civil War Revisited," *Political Geography* 60 (2017): 232–244; Jeannie Sowers, John Waterbury, and Eckart Woertz, "Did Drought Trigger the Crisis in Syria?," *Footnote* (2013).

⁶ Jeannie Sowers, "Understanding Climate Vulnerability in the Middle East and North Africa," *International Journal of Middle East Studies* 51 (2019): 621–625.

⁷ Jan Selby, "Climate Change and the Syrian Civil War, Part II: The Jazira's Agrarian Crisis," *Geoforum* 101 (2019): 260–274.

⁸ Farshad Araghi, "The Invisible Hand and the Visible Foot: Peasants, Dispossession and Globalisation," in *Peasants and Globalisation: Political Economy, Rural Transformation and the Agrarian Question*, ed. A. Haroon Akram-Lodhi and Cristóbal Kay (London: Routledge, 2008), 111–147.

⁹ White, "Climate Refugees", 135.

للجفاف والأزمة الاقتصادية تقيد الناس في أماكنهم، وتجعلهم مثقلين بالديون أو معتمدين على أشكال جديدة من الهجرة الموسمية، أو تكثف تقسيم العمل الجندري داخل الأسرة. وأوصلتني هذه الملاحظات إلى السؤال التالي: كيف يمكننا تجاوز النظرة السائدة حول النزوح السوري باعتباره اقتلاعاً من الجذور ناتج عن الحرب أو الجفاف، وذلك بهدف فهم النزوح على أنه أزمة تاريخية مستمرة، مُتعددة الأجيال، يُعاد إنتاجها اجتماعياً، ومرتبطة بالتنمية غير المُتكافئة على نطاق العالم؟ في إطار البحث الذي أجرته مع المزارعين السوريين في لبنان، تعاملت مع "الأزمة" بمعنيين مترابطين: أزمات التراكم، فضلاً عن الصراعات الأقل وضوحاً التي تنتجها هذه الأزمات في الحياة اليومية للمزارعين. فالأزمة، كما تذكّرنا الجغرافية الماركسية روث ويلسون غيلمور، "ليست سيئة أو جيدة من الناحية الموضوعية، بل إنها تشير إلى تغيير منهجي تتحدّد نتيجته من خلال النضال"¹⁰ وفقاً لهذا التعريف، تمثل الأزمات عمليات غير مُتكافئة تحركها تناقضات بنيوية تنطوي على إصلاحات سياسية ومالية. كما في حالة المزارعين السوريين، تمتلك هذه العمليات تأثيراً قوياً على الحياة اليومية، فهي غالباً تفرض التقشّف على المجتمعات والأسر والأفراد، ممّا يتطلّب منهم إعادة تنظيم مصادر رزقهم وأشكال الترابط بما يؤدي إلى تفاقم العديد من أشكال انعدام المساواة الموجودة بالأساس¹¹ وعلى نقيض "الأزمة" بالمعنى الإنساني، فإن هذا النوع من الأزمات – يهاجر المزارعون السوريون موسمياً إلى الخارج، ويعتمدون على عمل النساء، ويتكبدون الديون لدعم الأسر الريفية نتيجة عقود من التحرير الاقتصادي – لا يتمّ التركيز عليه وإبرازه عادة. بعض من أهمّ محاوريّ في لبنان كانوا من نسل الرعاة والمزارعين والصيادين الذين غرقت قراهم بسبب تشييد سدّ الفرات في العام 1973 ويعرفون باسم المغمورين. كان من المتوقع أن يكون المغمورين في طليعة "مشروع رائد" في سوريا، وهو المجتمعات الزراعية النموذجية التي تشكّل اللبنة الأساسية للاشتركية العربية. لكن ما تعلّمته أثناء العمل الميداني هو أن الواقع المعيشي أكثر تفاوتاً. ففي المقابل، وعن طريق العمل المأجور في المزارع المملوكة للدولة أو في المساحات الصغيرة من الأراضي البعلية، لم يتمكّن معظم السوريين الشرقيين من تأمين سبل العيش من الزراعة التي تقودها الدولة أو الأراضي التي أعادت توزيعها. على مدى العقود التي تلت بناء السدّ، دعموا مداخل أسرهم من خلال الهجرة الموسمية وتكثيف عمل المرأة غير المأجور في زراعة الكفاف وتربية الحيوانات. بالنسبة لهؤلاء المزارعين، ميّز الاعتماد المتزايد على هجرة العمالة المأجورة فترة انفتاح سوريا. افتتح وصول بشار الأسد إلى السلطة في العام 2000 الانتقال النيوليبرالي نحو "اقتصاد السوق الاجتماعي" المختلط، وقد تضمّن فتح سوق الأوراق المالية وإنشاء بنوك خاصة للمرة

¹⁰ Ruth Wilson Gilmore, *Golden Gulag: Prisons, Surplus, Crisis, And Opposition in Globalizing California* (Berkeley: University of California Press, 2007), 54.

¹¹ Ibid.

الأولى في سوريا، وتقليص السلع المدعومة من الدولة، وإخضاع أسعار المواد الغذائية التي كانت تحددها الدولة سابقاً للسوق التنافسية¹² في خلال هذه الفترة من التحرير الاقتصادي المتسارع، تمت خصخصة المزارع المملوكة للدولة وتوزيعها على العاملين السابقين فيها¹³ وإذا نظرنا إلى الأمر في ضوء التجربة السورية الطويلة المليئة بالإصلاح الزراعي واندماجها التدريجي في نظام الغذاء العالمي الرأسمالي، فسوف نرى أن آثار الجفاف في منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين لم تشكل قطعاً أو انفصلاً، بقدر ما كانت إعادة تنظيم استمرت ل عقود لمسارات من الاضطراب الاقتصادي والهجرة والصراعات من أجل تأمين سبل العيش في الريف.

إن تبني منظور زراعي لا يعني أن القضايا البيئية مثل تآكل التربة وتملحها، واستنزاف منسوب المياه الجوفية، وتراجع معدلات سقوط الأمطار لا تؤثر على حالات نزوح السوريين. في الواقع، ما اقترحه هو التفكير ملياً في الظروف البنوية التي ينتج من خلالها الجفاف ويعاد إنتاجه، وكيفية توزع تأثيراته، وارتباط هذه الظروف بالصراعات الطويلة الأمد على إعادة الإنتاج في المناطق الريفية. من المهم التأكيد على أن الجهود التي تبذلها سوريا لتحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء لم تكن تعتمد على استثمارات الدولة الهائلة في البنية التحتية للري والصناعات الزراعية فحسب، وإنما حافظت أيضاً على قطاع خاص بارز في الإنتاج والتوزيع. من خلال "الحركة التصحيحية" التي قادها حافظ الأسد، حافظت الدولة على احتكار القمح والشعير والأعلاف الجافة والقطن والشمندر السكري والتبغ. قام مزارعو هذه المحاصيل ببيع محصولهم للدولة بأسعار ثابتة، وتولت الدولة مسؤولية بيعها محلياً. في الوقت نفسه، سيطرت التجارة الخاصة على معظم أسواق الفاكهة والخضروات والماشية، على الرغم من محاولات الحكومة تنظيم أسعارها ووضع سقف لهوامش الربح¹⁴ في الواقع، كان توسع تربية الأغنام في السوق الخاصة من النتائج العديدة غير المقصودة لمشروع الفرات، وأصبحت مصدراً ثانوياً للدخل بالنسبة لمعظم سكان قرية جزيران ومؤسسة تجارية كبيرة للرعاة الأثرياء¹⁵ فضلاً عن ذلك، وعلى الرغم من وعد مشروع سدّ الفرات بالتوزيع العادل

¹² Diana Sarkis Fernández, "'Amnarja' La Wara (We Are Going Backwards): Economic Reform and the Politics of Labour in Agrarian Syria," *e Journal of Peasant Studies* (2020): 1–18.

¹³ Myriam Ababsa, "Syria's Food Security: From Self-Sufficiency to Hunger as a Weapon," in *Syria: From National Independence to Proxy War*, ed. Linda Matar and Ali Kadri (Cham: Springer International Publishing, 2019), 247–267

¹⁴ Raymond A. Hinnebusch, *Peasant and Bureaucracy in Baathist Syria: The Political Economy of Rural Development* (Boulder, CO: Westview Press, 1989), 147–156.

¹⁵ Annika Rabo, "Change on the Euphrates: Villagers, Townsmen and Employees in Northeast Syria" (PhD diss., Stockholm University), 74–75.

لفوائد الزراعة التي تقودها الدولة، فقد انتشرت الآبار الخاصة في هذه الفترة بالتحديد في جميع أنحاء المنطقة¹⁶

لطالما أعرب مسؤولو الدولة السورية ووكالات التنمية عبر الوطنية، على حدّ سواء، عن أسفهم لأن الرعاة في شرق سوريا يفرطون في رعي قطعانهم والمزارعين يحفرون الآبار الخاصة التي تستنزف احتياطات سوريا من المياه الجوفية، ممّا جعل المنطقة بلا شك أكثر عُرضة للجفاف. مع ذلك، يتيح لنا التحليل الزراعي الماركسي والنسوي أن نرى ارتباط هذه الممارسات بشكل وثيق بضغوط إعادة الإنتاج في ظروف الأزمة الاقتصادية¹⁷ على مدى عقود، سعت الأسر في منطقة جزيران إلى الحفاظ على حيازاتها من الأراضي وسبل عيشها، لا من خلال مواصلة العمل المأجور والهجرة الموسمية فحسب، وإنما أيضاً من خلال استراتيجيات مختلفة للحدّ من الاستهلاك والعمل الكفافي. غالباً عمل المزارعون والرعاة بجهد أكبر وأطول وانخرطوا في نشاطات وممارسات غير مستدامة من أجل ضمان إعادة الإنتاج المنزلي الفوري في مواجهة ارتفاع تكاليف المعيشة¹⁸ تتحمّل النساء هذه الأعباء بشكل غير متناسب. كان عمل النساء في سوريا الشرقية في إنتاج الألبان من خلال تربية الحيوانات بمثابة حساب ادخار للأسر ومصدر للنقد في مواجهة مصادر الدخل المُجزأة باضطراد. تحصل النساء على الأموال النقدية لأسرهن عبر بيع الحليب والبيض واللبن للتجار المحليين، في حين يضمن شراء الماشية أو بيعها تأمين سيولة نقدية منتظمة للأسرة¹⁹ ووفقاً لبحثي، كان هذا الأمر شائعاً أيضاً بين الموظّفين السابقين في المزارع المملوكة للدولة وغيرهم من المستفيدين من الإصلاح الزراعي. أيضاً، وعلى الرغم من طرح الاشتراكية العربية فكرة الاكتفاء الذاتي للأسر الريفية الصغيرة، إلا أن فوائد الإصلاح الزراعي كانت موزّعة بشكل غير متساو من الناحية الجندرية ضمن الأسر.

لا تنحصر العديد من الحالات الصعبة التي عاينتها في بحثي على المزارعين في سوريا أو الشرق الأوسط. بعد عقود من بلوغ التنمية التي تقودها الدولة أوجها، نتصارع الآن مع التداعيات المعقّدة لهذه المشاريع في مختلف أنحاء العالم. إن التحوّل نحو برامج التكيف الهيكلي في الثمانينيات والانهيال اللاحق للاقتصادات المخطّطة مركزياً في الاتحاد السوفياتي السابق وحلفائه، عزّز الحجج النيوليبرالية لصالح الانتقال الذي تقوده السوق. وهو ما أطلق العنان لتفكّك أنظمة إعادة توزيع الملكيات التي تقودها الدولة، وتحرير العمل من الأنظمة

¹⁶ Ababsa, "Crise agraire," 106.

¹⁷ Michael Watts, *Silent Violence: Food, Famine, and Peasantry in Northern Nigeria* (Berkeley: University of California Press, 1983).

¹⁸ Ibid.

¹⁹ Rabo, "Change on the Euphrates," 64.

التي ترعاه، وظهور الزراعة التعاقدية، والخصخصة الواسعة للمؤسسات والموارد الزراعية العامة، وتسجيل معدّلات غير مسبوقّة من التوسّع الحضري والهجرة إلى الخارج. إن فترات الندرة والمجاعة التي كانت تعتبر في يوم من الأيام "أزمات معيشة" منعزلة، أصبحت الآن سمة دائمة وثابتة للحياة الريفية المعاصرة في جميع أنحاء العالم.²⁰ في مواجهة أزمات الغذاء والتمويل والوقود والمناخ المتفاقمة، يغرق العديد من المزارعين في الديون، ويتم طردهم وانتزاعهم من أراضيهم ببطء أو بعنف، مما يجعلهم أكثر اعتماداً على أشكال هشّة من العمل المأجور أو غير القادر على تأمين عمل مربح.²¹ هذا الواقع يشكّل ضغطاً أكبر على العمل النسوي غير المأجور في الرعاية وزراعة الكفاف وتوفير الخدمات المنزلية.²² في سوريا وأماكن أخرى من العالم، أدّى الأمر إلى ارتفاع معدّلات الهجرة الموسمية وطويلة الأجل. بين العامين 1970 و2012، تضاعف عدد المهاجرين الدوليين في جميع أنحاء العالم.²³ في حين هناك تمييز لغوي مبهم اقتصادياً بين المهاجرين الاقتصاديين "الطوعيين" واللاجئين "غير الطوعيين" بحكم وجود أو عدم وجود إكراه سياسي أو كارثة مناخية، تأتي محنة السوريين في شرق البلاد مثلاً واضحاً على تقاطع عمليات النزوح المختلفة بنويّاً.

غالباً يُنظر إلى الأزمات على أنها لحظات إحياء أو انتقال، بحيث تنطوي على إمكانية تحفيز العمل السياسي الموحد. لكن ما يجعل الأزمات في ظل الرأسمالية ملحوظة إلى هذا الحدّ هو أنها تنشأ عن تناقضات مُتكرّرة.²⁴ لا شكّ في أن النزوح قد وصل إلى مستوى غير مسبوق في جميع أنحاء العالم. ويرتبط ذلك، في كثير من الحالات، بمضاعفة المخاطر المناخية وعمليات التدهور البيئي مثل تآكل التربة واستنزاف المياه الجوفية والتكثيف الزراعي. لكن إذا أردنا أن نفهم القوى المعقّدة التي ستجبر الناس على الهجرة في السنوات المقبلة، يجب علينا أولاً أن نأخذ على محمل الجدّ كيفية إعادة إنتاج "الأزمات" في سوريا وخارجها.

²⁰ Marc Edelman, "Bringing the Moral Economy Back in . . . to the Study of 21st-Century Transnational Peasant Movements," *American Anthropologist* 107, no. 3

²¹ Robert Chernomas, Ian Hudson, and A. Haroon Akram-Lodhi, "Crisis," in *Handbook of Critical Agrarian Studies*, ed. A. Haroon Akram-Lodhi, Kristina Dietz, Bettina Engels, and Ben M. McKay (Northampton: Edward Elgar Publishing, 2021), 232–237.

²² Carmen Diana Deere, "What Diſerence Does Gender Make? Rethinking Peasant Studies," *Feminist Economics* 1, no. 1 (1995): 53–72.

²³ Henry Veltmeyer and Raul Delgado Wise, *Agrarian Change, Migration and Development* (Winnipeg: Fernwood Publishing, 2016).

²⁴ Anwar Shaikh, *Capitalism: Competition, Con#ict, Crises* (Oxford: Oxford University Press, 2016).